تفسير سورة الكهف

كاملة

رامي حنفي محمود

هذا الكتاب منشور في

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ١

(تفسير سورة الكهف كاملة)

١. الربع الأول من سورة الكهف

من الآية ١ إلى الآية ٥: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الثناء على الله تعالى بصفاته التي كلّها كمال، والشكر له على نِعَمِهِ الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية، فهو سبحانه ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ - محمد صلى الله عليه وسلم - ﴿الْكِتَابَ﴾ أي أنزل عليه القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾: أي لم يَجعل في القرآن شيئًا مائلاً عن الحق، بل جَعَله كتابًا ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيمًا معتدلاً (لا اختلافَ فيه ولا تناقض، ولا تَشَدُّد ولا تفريط)، وقد أنزله سبحانه ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾: أي لِيُنذر الكافرين مِن عذابٍ شديدٍ مِن عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الذين يَعملون الأعمال الصالحة (بإخلاصٍ لله تعالى، وعلى النحو الذي شَرَعه اللهُ لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم)، فأولئك يُبَشِّرهم القرآن بـــ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (وهو الجنة) التي يُقيمون في نعيمها، ويَظلونَ ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا يُفارقونه أبدًا، ﴿وَيُنْذِرَ﴾ - بصفة خاصة – المُشركينَ ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (وكيف ذلك والكُلُّ مِلكُهُ وعَبيدُه، وهم خاضعونَ له، مُسَخَّرونَ تحتَ تدبيره، وهو سبحانه الغني عنهم، فكيف يكونُ له منهم ولد؟!).

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾: أي ليس عند هؤلاء المُشركين شيءٌ من العلم على ما يَنسبونه كذباً لله تعالى من اتِّخاذ الولد، وكذلك لم يكن عند آبائهم الذين قلَّدوهم عِلمٌ بذلك، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: أي عَظُمتْ هذه الكلمة القبيحة التي ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (وهي نِسبة الولد إلى الله تعالى)، ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي ما يقولونَ إلا قولاً كاذبًا (وَرِثوه عن آباءهم بغير دليل).

الآية ٦: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ - أيها الرسول - ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي مُهْلِك نفسك على أثَر إعراض قومك (يعني بسبب إعراضهم عن دعْوتك) ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي ستُهلِك نفسك غمًّا وحزنًا إنْ لم يُصَدِّقوا بهذا القرآن ويَعملوا به!

---

1 وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي"، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصَرُّف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نَصّ الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

الآية ٧، والآية ٨: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من المخلوقات ﴿زِينَةً لَهَا﴾ أي جَمالاً لها، ومَنفعةً لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنَختبر المُكَلَّفين من الإنس والجن: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: يعني أيُّهم أكثر اتِّباعاً لأمْرنا واجتناباً لنَهْينا وإتقاناً لطاعتنا، وأيُّهم الذي يَعصي ربه من أجل الدنيا، ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾: أي سنجعل كل ما على الأرض ترابًا، ﴿جُرُزًا﴾ أي لا نباتَ فيه (وذلك عند انتهاء الدنيا)، إذاً فلا تَحزن أيها الرسول على ما تَلقاه مِن أذى قومك وتكذيبهم، فإنّ الدنيا – التي مِن أجلها يُعادونكَ – ستزولُ سريعاً، ثم يُجازيهم اللهُ يوم القيامة على تكذيبهم وعِصيانهم.

من الآية ٩ إلى الآية ١٢: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾؟! يعني أم ظننتَ أيها الرسول أنّ قصة أصحاب الكهف – واللوح الحَجَري الذي كُتِبَت فيه أسماؤهم – شيئاً مُنفرداً بالعجب من بين الآيات الأخرى؟! (والاستفهام للنفي) أي لا تظن ذلك، فإنّ خَلْق السماوات والأرض وما فيهما من الآيات أعجب مِن هذا بكثير.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾: أي اذكر أيها الرسول – للسائلينَ عن قصتهم – حين لجأ هؤلاء الشباب إلى الكهف (فِراراً بدينهم، وخوفاً من تعذيب قومهم لهم)، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا مِن عندك رحمةً تُثَبِّتنا بها، وتحفظنا بها من الشر، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أي يَسِّر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الصعب الذي نحن فيه – مِن هِجرتنا لأهلنا وبيوتنا - ﴿رَشَدًا﴾: أي يَسِّر لنا ما يَصلُحُ به أمْر ديننا ودُنيانا.

♦ فاستجاب اللهُ دعاءهم ورَعَاهم، كما قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: أي فألقينا عليهم النوم العميق في الكهف سنين كثيرة، حتى تغيَّرتْ الأحوال وتَبدَّلت الأجيال، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: ثم أيقظناهم مِن نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي لنُظهِر للناس ما عَلِمناه في قديم الأزل، فيَعلموا ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾؟ يعني أيُّ الطائفتين المختلفتين في مدة بقاءهم في الكهف أضبَط في حساب هذه المدة؟ (والراجح أنّ الذين اختلفوا فيهم: هم فريقان من الأُمّة التي اكتشفتهم بعد سنين عديدة، واللهُ أعلم).

من الآية ١٣ إلى الآية ١٧: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي نتلو عليك خبر أصحاب الكهف بالصِدق واليقين، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: يعني إنهم شبابٌ صَدَّقوا بتوحيد ربهم وامتثلوا أمْره ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي زدناهم إيماناً وثباتًا (وذلك بسبب إيمانهم)، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾: أي قوَّينا قلوبهم بالإيمان حين قاموا بين يدي المَلِك الكافر، وهو يَلومُهم على تَرْك عبادة الأصنام، ﴿فَقَالُوا﴾ له: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي نعبده هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾: أي لن نَعبد غيره من الآلهة المزعومة كذباً، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾: يعني لو قلنا غير هذا، لكُنَّا قائلينَ قولاً ظالماً بعيدًا عن الحق، ثم قالوا له: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يَعبدونهم، فـ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾: يعني فهَلاَّ جاءوا بدليلٍ واضح يَدُلّ على استحقاقها للعبادة، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني فمَن أشد ظلمًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنَسَبَ إليه شريكاً في عبادته كَذِباً وافتراءً؟!

♦ ثم بعد أن خرجوا مِن عند هذا المَلِك، قال بعضهم لبعض – وهم يَتناصحونَ ويَتشاورون -: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني: بما أنكم فارَقتم قومكم بدينكم، وتركتم ما يَعبدونَ من دون الله، لم يَبقَ لكم إلا النجاة مِن شَرِّهم، إذاً ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾: أي الجؤوا إلى الكهف الذي في الجبل لعبادة ربكم وحده، وهَرَباً من أعدائكم المُشرِكين، فحينئذٍ ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي يُنزِّل عليكم ربكم مِن رحمته ما يُنجِّيكم به مِمّا فررتم منه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ أي: ويُيَسِّر لكم أموراً – من أسباب العيش – تنتفعونَ بها في مأواكم الجديد، (فلمَّا قالوا ذلك، وذهبوا إلى الكهف: ألقى اللهُ عليهم النوم وحَفِظهم).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ يعني: وإذا نظرتَ إليهم – أيها الرسول – لَرأيتَ الشمسَ ﴿إِذَا طَلَعَتْ﴾ من المَشرق ﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾: أي تميل وتَتَنَحَّى عن مكانهم إلى جهة اليمين فلا تصيبهم، ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي تتجاوز عنهم إلى جهة اليسار، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: وقد أنامهم اللهُ في مُتَسَّع من الكهف حتى لا يَنقطع عنهم الهواء، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعلناه بهؤلاء الشباب – مِن حِفظهم من حرارة الشمس، وعدم نفاد الهواء عنهم – هو ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي من دلائل قدرة اللهِ تعالى، ورحمته ولُطفه بأوليائه.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ يعني: مَن يُوَفِّقه اللهُ للاهتداء بآياته، فهو المُوَفَّق إلى الحق، ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ يعني: ومَن لم يُوَفِّقه لذلك، فلن تجد له مُعينًا يُرشده لإصابة الحق؛ لأنّ التوفيق والخِذْلان بيد اللهِ وحده، (إذاً فليَطلب العبد من ربه الهداية والثبات، وليَعتصم به من الزَيغ والضَلال).

الآية ١٨: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ يعني: وإذا نظرتَ إليهم – أيها الرسول – لَظننتَ أنهم مستيقظين (لأنّ أعْينهم كانت مُفَتَّحة) ﴿وَهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿رُقُودٌ﴾ أي نائمونَ لا يشعرونَ بأحد، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي نُقَلِّبهم أثناء نومهم مَرّة للجَنب الأيمن ومَرَّة للجَنب الأيسر، حتى لا تأكلهم الأرض، ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ - الذي أخذوه معهم لحِراستهم -﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي قد مَدَّ ذراعيه بفناء الكهف (لأنه أصابه من النوم ما أصابهم وقت حِراسته)، ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ يعني: لو شاهدتهم وهم نائمونَ وأعينهم مُفَتَّحة: لَرجعتَ فارّاً منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (لأنّ اللهَ قد ألقى الخوف والفزع على مَن يَراهم، حتى لا يدخل عليهم).

الآية ١٩، والآية ٢٠: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ يعني: وكما أنمناهم وحفظناهم هذه المدة الطويلة، فكذلك أيقظناهم مِن نومهم على هيئتهم دونَ تغيُّر، وذلك ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾: يعني لكي يَسأل بعضهم بعضًا، فيَزدادوا إيماناً باللهِ تعالى، ويَتيقنوا بحمايته لأوليائه، فـ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: يعني كم من الوقت بقينا نائمين هنا؟ ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا﴾ أي مَكَثنا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ﴿قَالُوا﴾ أي قال آخرونَ قد اختلط عليهم الأمر: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: أي رَبُّكم أعلم بالوقت الذي مَكَثتموه هنا، ففَوِّضوا ذلك الأمر إليه.

♦ وقد كانوا جائعينَ فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾: يعني أرسِلوا أحدكم بنقودكم الفضية هذه إلى مَدِينتنا، ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾: ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾: يعني أيَّ أهْل المدينة طعامه حلالاً طيباً ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ لتأكلوه سَدّاً لجُوعكم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في ذهابه وعودته وشرائه مع البائع حتى لا يَنكشف أمْرنا، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يعني: ولا يَفعل فِعلاً يؤدى إلى مَعرفة أحدٍ من قومكم بوجودكم في الكهف، فـ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يعني إن يَروكم: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة، فيقتلوكم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾: يعني أو يُرجعوكم إلى دينهم، فتَصيروا مُشرِكينَ مِثلهم ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾: أي ولن تفوزوا أبدًا بدخول الجنة والنجاة من النار، إن أطعتموهم فأشركتم بربكم.

الآية ٢١: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي جعلنا أهل ذلك الزمان يَعثرون عليهم (وذلك بعد أن كَشَفَ البائع نوع الدراهم القديمة التي جاء بها مَبعوثهم)، وقد جعلنا الناس يَعثرونَ عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ لأنّ الذي أنامهم كل هذه المدة ثم أيقظهم، قادرٌ سبحانه على أن يَبعثهم بعد موتهم، ليُحاسبهم ويُجازيهم بأعمالهم، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يعني: ولِيَعلم الناس أنّ الساعة التي تقوم فيها القيامة آتيةٌ لا شك فيها، ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: يعني إنهم عَثَروا عليهم في وقتٍ كان أهل البلد يَختلفون في أمْر القيامة: (فمِنهم مَن كانَ مؤمناً بها، ومنهم مَن كانَ مُنْكِراً لها)، فلمَّا اطَّلعوا جميعاً على أصحاب الكهف، جَعَلَ اللهُ اطِّلاعهم حُجَّةً للمؤمنين على الكافرين في قدرة اللهِ على البَعث والإحياء، وعلى أنّ البعث يكونُ بالأجسام والأرواح معاً وليس بالأرواح فقط.

♦ وبعد أن انكشف أمْرهم: ماتوا ﴿فَقَالُوا﴾ أي فقال فريقٌ من المُطَّلِعينَ عليهم: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾: أي ابنوا على باب الكهف بناءً يَحجبهم عن الناس، واتركوهم وشأنهم، فـ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾: أي ربهم أعلم بحالهم، و﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وهُم أصحاب الكلمة والنفوذ – الذين يُعرَفون بـ (الحكومة) -: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾: أي لَنَتّخِذنَّ على مكانهم مَسجدًا للعبادة، (وقد نَهَى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مَساجد، ولَعَنَ مَن فَعَلَ ذلك، لأنّ هذا قد يؤدي إلى عبادة مَن فيها).

الآية ٢٢: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي سيقول بعض أهل الكتاب – الذين اختلفوا في عدد أصحاب الكهف –: هم ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول فريقٌ آخر منهم: هم ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وكلامُ الفريقين كانَ ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي رَمْياً بالكلام من غير تثبّت، وظناً مِن غير دليل، (فدَلَّ ذلك على بُطلان القولين السابقين) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: وتقول جماعة ثالثة: هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (وهذا هو الصواب – واللهُ أعلم – لأنّ اللهَ تعالى قد أبطل القولين السابقين، ولم يُبطِل القول الثالث، فدَلَّ ذلك على صحته).

♦ ولّما كان هذا من الاختلاف الذي لا فائدة منه، وليس فيه مصلحة للناس (دينية أو دنيوية)، قال تعالى بعدها: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ أي ربي هو الأعلم بعددهم، و﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أي ما يَعلم عددهم إلا قليلٌ من الناس ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾: أي فلا تُجادل أهل الكتاب في عددهم إلا جدالاً ظاهرًا لا عُمقَ فيه (وذلك بأنْ تَذكر لهم ما

أخبرك الوحي به، دونَ أن تُكَذِّبهم أو تُوافقهم)، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي لا تسأل في شأن أصحاب الكهف ﴿مِنْهُمْ﴾ أي مِن أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ لأنهم لا يَعلمونَ ذلك وإنما يقولون بالظن والتخمين، لا بالعلم واليقين، (وفي هذا دليل على المنع مِن سؤال مَن لا يَصلح للفتوى).

الآية ٢٣، والآية ٢٤: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ تَعزم على فِعله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني إلا أن تُعَلِّق قولك بالمشيئة، فتقول: (إن شاء الله)، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: يعني وإذا نسيتَ قوْل: (إن شاء الله)، فاذكُره – ولو بعد فترة – لتَخرج به من الحرج، (وكلما نسيتَ شيئاً فاذكر الله؛ فإنّ ذِكْرَ اللهِ يُذهِب النسيان).

♦ واعلم أنّ سبب اعتراض هذه الآية للسياق، أنّ المُشركينَ لّما سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، قال لهم: (أُخبركم بما سألتم عنه غداً)؛ ولم يقل (إن شاء الله)، فانقطع الوحي نصف شهر، ثم نزلتْ سورة الكهف وفيها جواب ما سألوا.

﴿وَقُلْ﴾ لهم – بعد قوْل (إن شاء الله) -: ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾: أي لَعَلّ اللهَ أن يُنعِمَ عليّ بشيءٍ أكثر إثباتاً لنُبوّتي – وأكثر هِدايةً للناس – من قصة أصحاب الكهف، التي سألتموني عنها اختباراً لنُبوّتي.

الآية ٢٥، والآية ٢٦: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ يعني: ولقد بَقِي هؤلاء الشُّباب نائمين في كَهْفهم ثلاثمائة سَنَة (بالحساب الشمسي)، وثلاثمائة سَنَة وتسع سنين (بالحساب القمري)، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾: يعني وإذا سُئِلتَ أيها الرسول عن مدة بقائهم في الكهف – وليس عندك عِلمٌ مِن الله في ذلك – فلا تجتهد فيه بشيء، بل قل: (اللهُ أعلم بمدة بقائهم)، فإنه سبحانه ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يَعلمُ سبحانه جميع ما خَفِيَ عن حَواسّ الناس في السماوات والأرض، ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: أي تعجَّب مِن كمال بصر ربك وسَمْعه وإحاطته بكل شيء (أو بصيغةٍ أخرى: ما أعظم بَصَرَهُ بخَلقه، وما أعظم سَمْعه لأقوالهم، حيث لا يَخفى عليه شيءٌ من أحوالهم!)، و﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: أي ليس للخَلق أحدٌ غيره يَتولى أمورهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: وليس له شريكٌ في حُكمه وقضائه وتشريعه (لِغِناه سبحانه عَمّا سواه).

الآية ٢٧: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي اقرأ أيها الرسول ما أوحاه اللهُ إليك من القرآن (تَعَبُّداً به، وتعليماً للمؤمنين بما جاءَ فيه من الهدى، ودعوةً للناس إلى ربهم)، فإنه سبحانه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مُغَيِّر لكلماته، لا في ألفاظها ولا في مَعانيها ولا في أحكامها (ومِن ذلك ما وَعَدَكَ به من النصر على أعدائك)، ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي لن تجد مَلجأً تَميل إليه لِيُنَجّيك من عقاب ربك (إنْ وافقتهم على شيءٍ من اقتراحاتهم).

الآية ٢٨: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي صَبِّر نفسك أيها النبي، واحبسها – حَبْسَ مُلازَمة - ﴿مَعَ﴾ أصحابك مِن فقراء المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: أي الذين يَعبدونَ ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء، ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَهُ﴾ أي يريدون بأعمالهم الصالحة رضا اللهِ تعالى وَجَنَّتِه، والنظر إلى وجهه الكريم، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار الأغنياء، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ يعني: هل تريد مُجالسة هؤلاء الكفار الأغنياء،

للشرف والفخر، لأنهم أصحاب هيئة وزينة، وأصحابك ليس لهم ذلك؟ (وهذا استفهام غرضه النفي والإنكار) أي: لا تفعل هذا، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: ولا تُطِعْ مَن جعلنا قلبه غافلاً عَمّا يَجب عليه مِن ذِكرنا وعبادتنا (عقوبةً له)، لأنه عانَدَ وتكبَّر ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ففضَّله على طاعة مَولاه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾: أي وصارَ أمْرُهُ في جميع أعماله ضَياعاً وهَلاكًا.

♦ واعلم أنّ هذا التوجيه قد نَزَلَ للرسول صلى الله عليه وسلم عندما عَرَضَ عليه المُشرِكون إبعاد أصحابه الفقراء عنه (كَبلال وصُهَيْب وغيرهما)، ليَجلسوا إليه ويسمعوا منه، فنَهاه ربه عن ذلك، وأمَرَه بملازمة المؤمنين الفقراء، الذين لا يريدون بصلاتهم وتسبيحهم ودعائهم شيئاً من الدنيا، وإنما يريدون رضا اللهِ عنهم ومَحبته لهم.

♦ واعلم أنّ الفعل (كان) إذا جاء مع صفة معينة، فإنه يدل على أنّ هذه الصفة مُلازِمة لصاحبها، كقوله تعالى – واصفاً نفسه بالرحمة والمغفرة -: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي كانَ سبحانه – دائماً وأبداً – غفوراً رحيماً (للتائبينَ إليه في كل وقت، الخائفينَ من عاقبة ذنوبهم).

الآية ٢٩: ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء الغافلين: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: ما جئتكم به – من التوحيد والعمل الصالح – هو الحق من ربكم، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾: أي فمَن أراد منكم أن يُصَدِّق بهذا الحق ويَعمل به، فليَفعل فهو خيرٌ له، ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ يعني: ومَن أراد أن يَجحد فليَفعل، فما ظَلَمَ إلا نفسه، فـ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي للمُشرِكين، لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فأولئك قد أعَدَّ اللهُ لهم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي أحاطت بهم جُدرانها المُحرِقة، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ - بطَلَب الماء مِن شدة العطش – فإنهم ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾: أي يُؤتَ لهم بماءٍ يُشبه الزيت العَكِر – شديد الحرارة - ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: يعني إذا قرّبوه مِن وجوههم ليَشربوا: شوَى جلودهم ووجوههم، فإذا شربوه: قطَّعَ أمعاءهم، ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾: أي قَبُح هذا الشراب الذي لا يَروي ظمأهم بل يَزيده، ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: أي وقَبُحَتْ النار مَنزلاً لهم ومُستقَرًّا، (وفي هذا وعيدٌ شديد لمن أعرض عن الحق، فلم يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ الأمر في قوله تعالى: (فليَكفر) هو للتهديد والوعيد، بدليل ذِكر العذاب الذي سيُصيبه إنْ كَفَر).

الآية ٣٠، والآية ٣١: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لهم أعظم الثواب، فـ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نُضيع أجورهم على إيمانهم وإحسان أعمالهم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي لهم جنات الخلود التي يُقيمونَ فيها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري الأنهار مِن تحت قصورهم وغُرَفهم، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾: أي يَلبسونَ فيها أساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ أي ثياباً ذات لون أخضر، قد نُسجَت ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾ وهو الحرير الرقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (وهو الحرير الغليظ)، ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ (واعلم أنّ الاتّكاء هو الاستناد على شيءٍ في حال النعيم والرفاهية، واعلم أيضاً أن الأرائك جمع أريكة، وهي السرير المُزيّن بالستائر الجميلة)، ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ ثوابهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: أي وحَسُنتِ الجنة مَنزلا ومكانًا لهم.

****

٢. الربع الثاني من سورة الكهف

الآية ٣٢، والآية ٣٣: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ أي اجعل أيها الرسول مَثلاً – للمتكبرين الذين يُنكِرونَ البَعث – بـــ﴿رَجُلَيْنِ﴾ من الأمم السابقة، أحدهما مؤمن فقير، والآخر كافر غني، وقد ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ (وهو الكافر)، جعلنا له ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي حديقتين من أعناب، ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: يعني وأحَطناهما بنخلٍ كثير، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وأنبتنا بين العنب والنخل: ﴿زَرْعًا﴾ أي زروعًا مختلفة، و﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾: يعني كل واحدة من الحديقتين قد أثمرتْ ثمارها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾: أي لم تُنْقِص مِن ثمارها شيئًا – بسبب مرضٍ أصاب الثمار أو غير ذلك – بل أثْمَرَتْه كاملاً وافياً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾: أي شَقَقنا بين أشجار الحديقتين نهرًا جارياً ليَسقيهما بسهولة.

الآية ٣٤، والآية ٣٥، والآية ٣٦: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾: يعني وكانَ لصاحب الحديقتين ثَمَرٌ وأموالٌ أخرى (لأنّ كلمة ثَمَر جاءت في قراءة أخرى بضم الميم (ثُمُر) ومعناها أموال)، ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ في الحديث: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أعزُّ منك أنصارًا وأعوانًا، وأولاداً وعشيرة (وقد قال هذا فخراً وتعاظُماً)، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ أي: ودخل الكافر حديقته ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي مُعَرِّضُها لسخط اللهِ وعذابه، بسبب غروره وتكبُّره.

♦ وعندما أعجبته ثمار حديقته: ﴿قَالَ﴾ لصاحبه المؤمن: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾: أي ما أعتقد أن تَهْلك هذه الحديقة أبداً، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾: يعني وما أعتقد أنّ القيامة واقعة، ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾: يعني وإنْ فرضْنا وقوع القيامة – كما تزعم أيها المؤمن – ورُجِعتُ إلى ربي: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي لأجدنَّ عنده مكاناً أفضل من هذه الحديقة، وذلك لكرامتي ومنزلتي عنده.

من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٢: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ في الحديث: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾؟! يعني هل كفرتَ بقدرة اللهِ على البعث، وقد خَلَقَ أباكَ آدم مِن تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقك أنت مِن مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أي: ثم سوَّاك بَشَرًا مُعتدل الخَلْق؟! (فالذي ابتدأ خَلْقك قادرٌ على إعادتك بعد موتك)، ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾: يعني لكنْ أنا أقول: المُنعِم هو اللهُ ربي وحده، (فلم تَحصل لك الدنيا بحَولك وقوتك، بل بفضل اللهِ تعالى ونعمته)، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في عبادتي له، ولا أجحد نعمته عليّ، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾: يعني وهَلاَّ حينَ دخَلْتَ حديقتك فأعجبتك: ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: أي هذا هو ما شاءَ اللهُ لي، لا قوّةَ لي على تحصيله إلا بالله، هذا ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: يعني إنْ كُنتَ تراني أقل منك مالاً وأولادًا، (ولهذا ينبغي لكل مَن أعجبه شيءٍ يَخُصُّهُ -أو يَخُصُّ غيره – أن يقول: (مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه)).

♦ وقال المؤمن: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾: يعني فأرجو مِن ربي أن يُعطيني أفضل من حديقتك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على حديقتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذابا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أي فتصبح أرضًا مَلساء (لا تَثبُت

عليها قدم، ولا يَنبُت فيها نبات) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾: يعني أو يصير ماؤها (الذي تُسقَى منه) غائرًا في أعماق الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾: أي فحينئذٍ لن تقدر على إخراجه.

♦ واستجابَ اللهُ دعاءَ المؤمن على الكافر بسبب غروره وجحوده ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: أي وَقع الدمار بحديقة الكافر، فهَلَكَ كل ما فيها، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ حسرةً وندامةً ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ مِن جهدٍ كبير ومالٍ كثير ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي فارغة مِمّا كانَ فيها، وقد تحطَّمتْ، وسقطتْ جُدرانها ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾: أي على سُقوفها ﴿وَيَقُولُ﴾: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (فعُلِمَ مِن هذه الجملة أنه كان مُشرِكاً باللهِ تعالى، ولذلك قال له المؤمن: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)).

الآية ٤٣، والآية ٤٤: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: ولم تكن له جماعة – مِمّن افتخر بهم – يَمنعونه مِن عقاب اللهِ حينَ نَزَلَ به ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾: يعني وما كانَ مُمتنعًا بنفسه وقوّته (لأنّ مَن خَذَله اللهُ فلا ناصرَ له).

♦ ثم قال تعالى في نهاية هذه القصة: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي في مِثل هذه الشدائد – حينَ نزل العذاب بصاحب الجنتين – تكون النُصرة للهِ المعبود الحق (لا لغيره من المعبودات الباطلة التي لم تدفع عن عابدِيها شيئاً من العذاب).

♦ فمَن كان مؤمناً تقيّاً، كان اللهُ له وَلِيًّا، فيَنصره ويَدفع عنه الشرور والبلاء، ويوم القيامة يُعطيه أحسن الجزاء، فـ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾: أي خيرُ مَن يُثيب على الإيمان والعمل الصالح، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي خيرُ مَن يَجزي بحُسن العاقبة لمن رَجَاهُ وآمَنَ به.

الآية ٤٥: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي اجعل أيها الرسول – للناس – مَثلاً لسرعة زوال الدنيا التي اغترُّوا بها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: أي فنَبَتَ بهذا المطر أنواعٌ كثيرة من النبات، الذي نَمَا وازدهر حتى اشتبك بعضه ببعض، وأثْمَرَ الكثير من مُختلف الحبوب والثمار، وما هي إلا مُدّة يسيرة: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾: أي حتى صار هذا النبات يابسًا مُتكسِّراً تنسفه الرياح ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي قادراً كامل القدرة، لا يُعجزه شيء.

الآية ٤٦: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي هم قوةٌ وجَمالٌ في هذه الدنيا الفانية، إذ يَتجمل بهما الإنسان فترة قصيرة، ثم يَذهبان ولا يَدخلان معه قبره (إذاً فلا يَجعلهما همَّه في هذه الحياة، ولا يُشغِلاهُ عن طاعة مَولاه)، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: يعني والأعمال الصالحة - وخاصةً التسبيحُ والتحميد والتكبير والتهليل -: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ من الأموال والأولاد، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾: يعني وهذه الأعمال الصالحة هي أفضل ما يَرجو الإنسانُ من الثواب عند ربه، إذ يَحصل بها على ما كان يَأمله ويَتمناه في الدنيا (وزيادةٌ على ذلك مِمّا لم تَرَ عينه، ولم تَسمع أُذُنه، ولم يَخطر على قلبه).

الآية ٤٧، والآية ٤٨: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي: واذكر لهم يوم نَقتلع الجبال فنُزيلها عن أماكنها، ثم نَجعلها هباءً منثوراً (ما أعظمك يارب!)، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة، ليس عليها شيء من المخلوقات، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: وجَمَعنا الأولين والآخِرين مِن قبورهم للحساب والجزاء ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: أي فلم نترك منهم أحدًا، ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي مُصطَفِّينَ لا يَخفى على اللهِ منهم أحد، ويقول اللهُ لمُنكِري البعث – تأنيباً لهم -: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾: أي لقد بَعثناكم، وجئتم إلينا بمُفردكم، فليس معَ أحدِكم مالٌ ولا ولد، بل جئتم حُفاةً عُراةً ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ يا مُنكِري البعث والجزاء ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ نَبعثكم فيه ونُجازيكم.

الآية ٤٩: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: أي وُضِعَ كتابُ أعمال كل واحدٍ في يمينه أو في شماله، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ في ذلك الوقت ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفينَ مِمّا في الكتاب، بسبب ما قدَّموه مِن جرائمهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ - ندماً وتحسُّراً – حينَ يقرؤونه: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ يعني يا هَلاكنا (والمقصود أنهم يَدعون على أنفسهم بالهلاك والموت، لمُشاهدتهم لعظائم الأهوال وما يَنتظرهم من أصناف العذاب)، ويقولونَ: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؟! أي ما بالُ هذا الكتاب لم يَترك صغيرةً مِن أفعالنا ولا كبيرةً إلا أثبَتها؟! ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي مُثبتًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

الآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي اذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين – الذين أطاعوا عَدُوّهم وعَدُوّ أبيهم، وعَصَوا ربهم مِن أجْله – فاذكر لهم حين قلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (سجود تحية وتكريم، وليس سجود عبادة وخضوع)، ﴿فَسَجَدُوا﴾ جميعًا ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لم يَسجد لآدم كِبرًا وحسدًا ﴿فَفَسَقَ﴾ بذلك ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: أي خرج بذلك عن طاعة ربه، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟! يعني أفتجعلونه – أيها الناس – هو وذريته أعوانًا لكم تطيعونهم وتتركون طاعتي، وهم أشدّ أعدائكم؟! ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾: أي قَبُحَتْ طاعة الظالمينَ للشيطان، بدلاً عن طاعة الرحمن.

♦ ثم يُخبر سبحانه بأنه المنفرد بالخلق والتدبير، وبأنه وحده المُستحِق للعبادة، فيقول: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يعني ما أحضرتُ إبليس وذريته – الذين أطعتموهم – ليَشهدوا خَلْقَ السماوات والأرض، حتى أستعين بهم على خلقهما، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾: يعني ولا أشهدتُ بعضهم على خَلْق بعض، بل تفرَّدتُ بخَلق جميع المخلوقات بغير مُعين، ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: يعني وما كنتُ مُتَّخِذاً أحداً من شياطين الإنس والجن أعوانًا لي في الخلق والتدبير.

الآية ٥٢، والآية ٥٣: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾: أي اذكر أيها الرسول يوم يقول اللهُ للمُشركين يوم القيامة: نادوا مَن زعمتم أنهم شركاء لي في العبادة؛ لينصروكم اليومَ مِنّي، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: أي فاستغاثَ المُشركون بهم فلم يُغيثوهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾: أي جعلنا بين المُشركين ومَعبوديهم حاجزاً في أرض المَحشر يَفصل بينهم، ثم لَمّا يَدخلوا النار: نَجعل لهم مكاناً في جهنم يَهلكون فيه جميعًا، ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ يوم القيامة ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ

﴿مُوَاقِعُوهَا﴾: أي فأيقنوا أنهم واقعونَ فيها، (إذ يُطلَق الظن ويُراد به اليقين، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم)، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: أي لم يَجدوا مكاناً يَنصرفونَ إليه لِيَنجوا من عذابها.

الآية ٥٤: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي وضَّحنا ونوَّعنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يعني أنواعًا كثيرة من الأمثال والأدلة لِنُقيم عليهم الحُجّة، ولِيَتعظوا بها ويؤمنوا، ولكنّ المتكبرين منهم قابَلوا ذلك بالجحود والجدال (مِن بعد ما تَبَيَّنَ لهم الحق) ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي هو أكثر المخلوقات جِدالاً (يعني أكثر من الجن)، وذلك حتى لا يَتخلى عن شهواته وأهوائه ويَنقاد للحق (إلا مَن عَصَمَه الله، وأعانه على مخالفة نفسه وهواه).

الآية ٥٥: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني: لم يَمنع الكفارَ من الإيمان والتوبة والاستغفار – حينَ جاءهم الرسول ومعه القرآن – ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: يعني إلا أنهم اشترطوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لن يؤمنوا به حتى يُنَزِّل عليهم عذاباً مِثل عذاب السابقين – ليكون ذلك دليلاً لهم على نُبُوّته - ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾: يعني أو يأتيهم عذاب يوم القيامة مُقابلةً أمام أعْينهم، (وهذا مِن جَهْلهم وعنادهم)، لأنهم حينئذٍ لن يَنفعهم الإيمان.

الآية ٥٦: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس ﴿إِلَّا﴾ ليكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة (لأهل الإيمان والعمل الصالح)، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بالنار (لأهل الكُفر والعِصيان)، (فلم نُرسِلهم عَبَثاً، ولم نُكَلِّفهم بهداية الناس أجمعين)، ورغم وضوح الحق: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ رُسُلهم ﴿بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي لِيُحاولوا إزالة الحق بباطلهم (ولن يَقبل اللهُ تعالى إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كَرِهَ الكافرون)، ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾: يعني إنهم استهزؤوا بدلائل توحيدي وتخويف الرُسُل لهم مِن عذابي.

الآية ٥٧: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أي لا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الواضحة ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وانصرف إلى الباطل ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الذنوب ولم يَتُب منها.

♦ ثم ذَكَرَ سبحانه سبب ظُلمهم وإعراضهم ونسيانهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية، حتى لا يَفهموا القرآن، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: أي وجعلنا في آذانهم ما يُشبه الصَّمَم، حتى لا يَسمعوا القرآن سماعَ تدبر وانتفاع، (وهذا كله عقوبةٌ مِن الله تعالى لهم، بسبب إيذائهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبسبب تَوَغُّلهم في الشر والفساد، فحَرَمهم اللهُ من الهداية)، ولهذا قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (وذلك لأنهم عرفوا طريق الحق فتركوه، وعرفوا طريق الضَلال فسلكوه، فاستحقوا بذلك العقاب والحِرمان، نسأل اللهَ العفو والعافية).

الآية ٥٨: ﴿وَرَبُّكَ الْغفُورُ﴾ – لذنوب عباده إذا تابوا –، وهو سبحانه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بهم، إذ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾: يعني لو يُعاقب هؤلاء المُعرِضين بما كَسَبوا من الشرك والذنوب: ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ ولكنه تعالى حليمٌ لا يُعاجل بالعقوبة، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ يُجازيهم فيه بأعمالهم، و﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي لن يَجدوا مَلجأً يَحميهم من الله تعالى إذا جاءهم هذا المَوعد، (ويُحتمَل أن يكون المقصود بهذا المَوعد: يوم بدر، لأنّ السياق كان في الظَلَمة المُعاندين المحرومين من الهِداية، كأبي جهل وعُقبة ابن أبي مُعَيط والأخنَس بن شُريق، والله أعلم).

الآية ٥٩: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ القريبة منهم – مِثل قُرَى قوم هود وصالح ولوط وشعيب - ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾: يعني أهلكناها حينَ ظلم أهلها أنفسهم بالكفر والمعاصي، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾: أي جعلنا لهلاكهم وقتاً مُحدداً، فلمَّا بلغوه: جاءهم عذابنا فأهلكناهم به، (وكذلك الحال مع هؤلاء المجرمين من قريش، حيثُ أهلكهم الله ببدر ولعنهم إلى الأبد).

****

٣. الربع الثالث من سورة الكهف

الآية ٦٠، والآية ٦١، والآية ٦٢: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ أي اذكر أيها الرسول حينَ قال موسى لخادمه "يُوشَع بن نون": ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾: أي لا أزال أتابع السير حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾: يعني أو أسير زمنًا طويلاً حتى أصل إلى العبد الصالح – الذي أخبرني الله تعالى به – لأتعلم منه ما ليس عندي من العلم.

♦ واعلم أنَّ سبب هذه القصة - كما ثَبتَ في الصحيحيْن "البُخاري ومُسلم" عن النبي صلى الله عليه وسلم – أنَّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ: (أيّ الناس أعلم؟)، فقال: (أنا)، فعاتبه اللهُ على ذلك (لأنه أجابهم دونَ وَحْيٍ منه سبحانه)، فأوحى اللهُ إليه: (إنّ لي عبداً بمَجمع البحرين هو أعلم منك)، فقال موسى: (يا رب وكيف لي به)؟ – يعني كيف أصل إليه؟ – فقيل له: (احمل حوتاً في مِكتل – يعني احمل سمكة كبيرة في وعاء، (وفي رواية: أنه يُمَلِّحها، لتكون غذاءً له) – فإذا فَقَدته – (يعني في المكان الذي ستفقد فيه هذا الحوت) – فستجد هذا العبد هناك، فانطلَقَ هو وفتاه "يُوشَع بن نون" حتى وجدا هذا العبد الصالح واسمه "الخَضِر"، (وسوف يَتِمّ شرح باقي الحديث في مَوْضعه مع التفسير).

♦ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾: أي فلمّا اجتهدا في السَّير، ووصلا إلى مُلتَقى البحرين، جَلَسَا عند صخرةٍ وناما عندها، و﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ عند هذه الصخرة ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾: يعني فإذا بالحوت يُصبِحُ حيًّا – بعد أن كانَ مَيّتاً – ويَنزل في البحر، ويَتخذ له فيه طريقًا (كالنفق في الجبل).

♦ واعلم أنّ موسى عليه السلام عندما نام، كانَ "يُوشَع" (شِبه نائم)، فرأى الحوت وهو يَخرج مِن وعاءه ويَشُق طريقه في البحر، ولكنّ "يُوشَع" غلبه النوم، فنام ونسي خروج الحوت من المِكتل ودخوله في البحر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني فلمّا تَجاوزا المكان الذي نسيا فيه الحوت، وشعر موسى بالجوع: ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ يعني أحضِر إلينا غداءنا، فـ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي تعبًا وإرهاقاً.

الآية ٦٣: ﴿قَالَ﴾ له خادمه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾؟ يعني أتَذكُر حين لجأنا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ يعني فإني نسيت أن أخبرك بما كانَ مِن أمْر الحوت، ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ يعني: وما أنساني أن أذكُر لك ذلك إلا الشيطان، فإنّ الحوت الميت قد دَبَّتْ فيه الحياة ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: وقفز في البحر، واتخذ له فيه طريقًا، وكان أمْرُه عجيباً.

من الآية ٦٤ إلى الآية ٧٠: ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ يعني: ذلك الذي حصل، هو ما كنا نطلبه، فإنه علامة لي على مكان العبد الصالح، ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: أي فرجعا يَتتبعان آثار مَشْيهما حتى انتهيا إلى الصخرة،

﴿فَوَجَدَا﴾ هناك ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو "الخَضِر" عليه السلام (وهو نبي من أنبياء الله تعالى، وذلك على الراجح من أقوال العلماء)، والدليل على ذلك أنّ اللهَ تعالى عَلَّمه أشياءً مِن عِلم الغيب – كما سيأتي في القصة – وقد قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، والدليل على أنه ليس مَلَكاً أنه – كما سيأتي أيضاً في القصة – أرادَ مِن أهل القرية أن يُطعِموه، ومعلومٌ أن الملائكة لا تأكل.

♦ وقد ﴿آتَيْنَاهُ﴾ يعني أعطينا الخَضِر ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ - وهي النُبُوَّة - ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي مِن عندنا ﴿عِلْمًا﴾ عظيمًا (وهو بعض الأشياء مِن علم الغيب عن طريق الوحي)، فـ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ يعني هل تَأذن لي أن أتَّبعك لتُعَلِّمني شيئاً – أسترشد به وأنتفع – من العلم الذي علَّمك اللهُ إياه؟، فـ﴿قَالَ﴾ له الخَضِر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي لن تستطيع أن تصبر على اتِّباعي ومُلازمتي، (وقد أرادَ بذلك أنه سيَرى منه أموراً لا يُقِرّها موسى في شَريعته، والخَضِر لابد أن يَفعلها، فيَتضايق موسى بسببها ولا يطيق الصبر).

♦ وقال الخَضِر لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟! يعني وكيف لك الصبر على ما سأفعله من أمورٍ يَخفى عليك عِلمها والحِكمة منها؟!، فـ﴿قَالَ﴾ له موسى – وقد أصَرَّ على طلب العلم –: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أراه منك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، فوافق الخَضِر، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ يعني فإنْ صاحَبْتَني ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ تُنكِرُه مِنِّي ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أكون أنا الذي يُبَيِّن لك حقيقته، دونَ سؤالٍ منك.

الآية ٧١: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يَمشيان على الساحل، فمَرَّتْ بهما سفينة، فطلبا مِن أهلها أن يَركبا معهم، فعرفوا الخَضِر، فحملوهما بغير أجر ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾: يعني فلمّا ركبا: قَلَعَ الخَضِر لوحًا من السفينة فخرقها، فـ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وقد حملونا بغير أجر؟! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: يعني لقد فعلتَ أمرًا مُنكرًا.

الآية ٧٢: ﴿قَالَ﴾ له الخَضِر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على صُحبتي.

الآية ٧٣: ﴿قَالَ﴾ موسى مُعتذِرًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾: أي لا تؤاخذني بنسياني لشرطك عليَّ (فإنّ الناسي لا حرج عليه)، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: ولا تشُقّ عليّ في تعلُّمي منك، وعامِلني برفقٍ ويُسر (فقبل الخَضِر عُذره).

الآية ٧٤: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يَمشيان بعد أن نزلا من السفينة ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ يعني: فبَينما هما يمشيان على الساحل: لَقِيا غلامًا يَلعب مع الغِلمان، فقتله الخَضِر، فأنكر موسى ذلك عليه، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾: يعني كيف قتلتَ نفسًا طاهرة لم تبلغ حدَّ التكليف ولم تتلوث بالذنوب؟!، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؟! يعني وكيف قتلته وهو لم يَقتل نفسًا يَستحق بسببها هذا القتل (قِصاصاً)؟! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: أي لقد فَعَلْتَ أمرًا تُنكِره الشرائع والعقول، (ولم تكن هذه نِسياناً من موسى كالتي قبلها، بل كان هذه المرة متعمداً، لأنه لم يُطِق فِعلاً مُنكَراً كهذا).

الآية ٧٥: ﴿قَالَ﴾ الخَضِر لموسى – مُعاتِبًا ومُذكِّرًا –: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على ما تراهُ من أفعالي؟

الآية ٧٦: ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ فـ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾: أي قد بلغتَ العُذر في شأني ولم تقصِّر؛ حيثُ أخبرتَني أنني لن أستطيع معك صبرًا.

♦ واعلم أنّ العلماء قد اختلفوا في الفرق بين (شيئاً إمراً وشيئاً نُكراً)، ورجّح بعضهم أنّ الاثنان بمعنى واحد، وهو: (الأمر الفظيع المُنكَر)، ولكنّ النُكر أعظم من الإمر، لأنّ قتل النفس البريئة بغير ذنب هو أكبر مِن خَلْع لوح من السفينة (فاللوح يُمكِن أن يَتِمّ إصلاحه أو يُؤتَى بغيره، لكنّ المقتول لا يُمكِن إعادته).

الآية ٧٧: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يَمشيان ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي طلبا من بعض أهلها طعامًا على سبيل الضيافة، ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾: أي فامتنع أهل القرية عن ضيافتهما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ مائلاً ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي يُوشِك أن يَسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾: أي فعدَّله الخَضِر وأصلحه حتى لا يَسقط، فـ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: يعني لو شئتَ لأخذتَ أجرًا على هذا العمل – مِن صاحب الجدار – لتُحضِر لنا به طعامنا، (إذ كيف تَبنيه لهم (مَجّاناً)، وقد كانوا بخلاء معنا ولم يُضيِّفونا؟).

الآية ٧٨، والآية ٧٩: ﴿قَالَ﴾ الخَضِر لموسى: ﴿هَذَا فِرَاقُ﴾ أي هذا هو وقت الفراق ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، و﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك الآن بتفسير الأفعال التي أنكرتَها عليَّ ولم تستطع صبرًا على ترْك السؤال عنها، فـ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ﴾ عليها ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ أي يؤجِّرونها للرُكّاب طلباً للرزق، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بذلك الخَرق، والسبب في ذلك: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾: يعني لأنه كان أمامهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة من أصحابها قهراً (فأردتُ أن أجعل بها عيباً حتى لا يَرغب فيها).

♦ واعلم أنّ لفظ "وراء" يُطلق على ما كان خلفاً وما كان أماماً، لأنّ كل ما وُورِيَ – أي: استُتِر – فهو وراء، كما قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي مِن بعد موته.

الآية ٨٠، والآية ٨١: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾: يعني كان أبوه وأمه مؤمِنَيْن، وقد عَلِمَ اللهُ تعالى أنّ ذلك الولد إذا بَلَغَ وكَبَر سوف يَعُقُّهما ولا يُطِعهما ﴿فَخَشِينَا﴾ أي فخِفتُ إن بَقِيَ حَيّاً وكَبُر ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني أن يُوصل والديه إلى الكفر والطغيان؛ بسبب مَحبتهما له أو شدة حاجتهما إليه، فيُطيعا أمْره، ويَميلا إلى ما هو عليه، ويُقِرَّاه على ما يَفعله (حتى ولو كان طغياناً وكفراً)، فيكونا بذلك مِثله، ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أي فأردتُ أن يكون قتلي له سبباً أرجو به من اللهِ تعالى أن يُبْدِلَ أبويه غلاماً خيراً منه صلاحًا وبِرًا بهما.

♦ واعلم أنّ الخضر عليه السلام قد قال اللفظيْن: ﴿فَخَشِينَا﴾، و ﴿فَأَرَدْنَا﴾ بضمير الْمُتكَلِّم الْجَمْعِي (تواضعاً لا تعاظماً)، لأنه هنا قد أخبر أنّ اللهَ تعالى هو الذي علَّمه ذلك، فناسَبَ ذلك التواضع، فقال اللفظيْن: ﴿فَخَشِينَا﴾، و ﴿فَأَرَدْنَا﴾ بإظهار أنه قد عاوَنَهُ أحد في هذا الفعل، وذلك مِثل قوله تعالى – حكايةً عن يوسف عليه السلام –: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾، وهذا أيضاً مِثل قول القائل: (لقد وفقنا اللهُ تعالى إلى فِعل كذا وكذا).

الآية ٨٢: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي عدَّلتُ مَيْلَه حتى اعتدل: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (أي في القرية التي فيها الجدار) ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ رجلاً ﴿صَالِحًا﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي يَكبَرا ويَبلغا قوّتهما، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ بأيديهما، وقد كانَ ذلك ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بهما، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾: يعني وما كانت أفعالي هذه ناتجة عن إرادتي واختياري، وإنما فعلتُها بأمْر اللهِ تعالى وتعليمه، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وَضَّحتُهُ لك هو ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾: أي هو تفسير الأمور التي لم تستطع صبرًا على ترك السؤال عنها والإنكار عليَّ فيها.

♦ واعلم أنّ الفعل (تَسْطِعْ) هو بمعنى (تَسْتَطِعْ)، ولكنْ حُذِفَتْ التاء هنا تخفيفاً لقُرْبِها مِن مَخرج الطاء، وذلك تجنُّباً لإعادة نفس اللفظ المذكور في قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، حتى لا يَحدث ثِقَلٌ للسامع مِن تكراره، وهو ما يُسَمّى في اللغة بـــ (أسلوب التفنُّن)، كما سيأتي في قوله تعالى – حكايةً عن ذي القرنين –: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

♦ واعلم أيضاً أنه يُستفاد من هذه القصة أنّ الإنسان ينبغي ألاَّ يَحكم على الأمور بالظاهر، لأنّ هناك أشياء لا يَعلمها ولا يَعلم الحكمة منها، ولذلك ينبغي أن يقول دائماً: (قدَّرَ اللهُ وما شاءَ فعل)، ويُفَوِّض الأمر لربه العليم الحكيم، ويَتذكر هذه القصة.

****

٤. الربع الأخير من سورة الكهف

الآية ٨٣: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾: أي يَسألك مُشركو قومك – أيها الرسول – عن خبر المَلِك الصالح "ذي القرنين"، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: أي سأقرأ عليكم مِن حاله خبرًا يَحمل موعظةً وعِلمًا تتذكرونه وتعتبرونَ به.

الآية ٨٤، والآية ٨٥، والآية ٨٦: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أعطيناه من المُلك والسلطان والعلم ما يُمَكِّنُه من التحكم في مَمالك الأرض ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: يعني أعطيناه من كل الأسباب والوسائل و"الإمكانيات" التي يتوصل بها إلى ما يريد (مِن فَتْح البلاد لِيَنشر فيها العدل والخير، وغير ذلك) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: أي فأخَذَ بتلك الأسباب والطرق بجِدٍّ واجتهاد، وأتْبَعَ السبَبَ سببًا آخر، حتى انتهى إلى ما يريد، (وهذا مِن سُنن الله الكونية في تكامُل الأشياء، فمَن صَنَعَ "العَرَبة" وتابَعَ الأسباب التي تَوَصَّلَ بها إلى صُنع "العَرَبة"، فإنه يَصنع "الطائرة"، وهكذا).

♦ واعلم أنّ كلمة "السبب" مَعناها الحقيقي: (الحَبل)، ولكنها أُطلِقَتْ على كل ما يُتوَصَّل به إلى شيءٍ ما.

♦ فتابَعَ ذو القرنين بين أسباب الغزو والفتح، وسارَ بجنوده ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾: يعني حتى إذا وصل إلى المكان الذي تَغرب فيه الشمس (وهو على ساحل المحيط الأطلنطي): ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: أي وَجَدَها – في نظر العين – كأنها تغرب في ماءٍ ساخن أو أسود، (وكَوْنها تَغرب في هذا الماء: هو بحسب رؤية العين، وإلاّ فالشمس في السماء، والمحيط في الأرض).

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ أي عند تلك العين الحَمِئة – في ذلك الإقليم الغربي - ﴿قَوْمًا﴾ (كافرين أو فُسّاق)، لأنّ اللهَ تعالى رَخَّصَ له في تعذيبهم – كما سيأتي – فلو أنهم كانوا مؤمنين، ما رَخَّصَ له في تعذيبهم، فـ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، والمعنى أنّ اللهَ أَذِنَ له في التصرف فيهم (بعد أن يَسَّرَ له أسباب التغلب عليهم)، فخَيَّره سبحانه بين أن يُعَذِّبهم بالقتل أو غيره، وبين أن يُعاملهم بالإحسان، فيُطلِقَ سَراحهم بدون فداء، أو يأخذ منهم الفداء.

الآية ٨٧، والآية ٨٨: ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لهؤلاء القوم: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: يعني أمَّا مَن استمرَّ على شِركه وفجوره: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي: ثم يَرجع إلى ربه بعد الموت، فيُعذبه عذابًا فظيعًا في نار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ بربه، فصدَّقَ به ووَحَّدَه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (على النحو الذي شَرَعه)، ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾: أي فله الحُسنى – وهي الجنة – ثوابًا من اللهِ تعالى، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ يعني: وسنُحسن إليه، ونُلَيِّن له القول ونُيَسِّر له المعاملة، فلا نُكَلِّفه ما يُرهقه.

الآية ٨٩، والآية ٩٠: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سارَ ذو القرنين بجنوده ليَفتح المَشرق، مُتَّبعًا الأسباب التي أعطاها اللهُ له في فتح المَغرب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾: يعني حتى إذا وصل إلى المكان الذي تطلع منه الشمس – في نظر العين -: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي ليس لهم مساكن تسترهم من الشمس، ولا ثياب يَلبسونها (إذ كانوا قومًا (بدائيين) لم تساعدهم الأرض التي يعيشون عليها على التحضّر، فلذلك كانوا يَسكنونَ الكهوف والمَغارات والسراديب، ويَسترون عوراتهم بأوراق الشجر وجلود الحيوانات وغير ذلك).

الآية ٩١: ﴿كَذَلِكَ﴾ - أي كذلك كانَ أمْرُهُم كما قصصنا عليك أيها الرسول - ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾: أي وقد أحاطَ عِلْمُنا بما عند "ذي القرنين" من الأسباب المادية والإيمانية، حيثما توجَّه وسار.

الآية ٩٢، والآية ٩٣، والآية ٩٤: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم واصَلَ طريقه في الغزو والفتح – آخِذًا بالأسباب التي أعطاها اللهُ له – ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جَبَلان عظيمان يَحجزان ما وراءهما، فـ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ يعني وجد أمام هذين الجبليْن ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يَفهمون كلام مَن يخاطبهم إلاّ بشدة وبُطء (لأنهم لا يَعرفون لهجةً أخرى غير لَهْجتهم)، فـ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وهُما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بإهلاك الزرع وقتْل البشر والتدمير والتخريب، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: يعني فهل نجعل لك أجرًا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾: يعني مُقابل أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا يَمنعهم من الوصول إلينا؟

الآية ٩٥، والآية ٩٦: ﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ يعني ما أعطانيه ربي من المُلك والتمكين هو خيرٌ لي مِن مالكم، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ مِن أجسادكم: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزًا قويًّا – في المسافة التي بين الجبلين – ليَكون حائلًا بينكم وبينهم.

♦ وقال لهم ذو القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾: يعني أعطوني قطع الحديد (كل قطعة منهم على قدر الحجر الذي يُستَخدَم في البناء)، فجاؤوا به إليه، فأخذ يضع الحديد ويَبني السد ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، يعني حتى إذا ارتفع البناء وأصبح مُساويًا لارتفاع الجبلين: ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين للعُمّال: ﴿انْفُخُوا﴾ أي أشعِلوا النار، وانفخوها على الحديد حتى يَنصهر (ليُصبح أكثر صلابةً وثباتًا)، ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾: يعني حتى إذا اشتعلت النار في جميع قطع الحديد، وصار الحديد كله مُنصهرًا: ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾: يعني أعطوني نحاسًا مُذابًا أُفرِغه عليه، فجاؤوا إليه بالنحاس المُذاب، فأفرغه على السد، (ولَعَلّ الحكمة من اتحاد الحديد المنصهر مع النحاس المُذاب أنْ تَنتج مادة ثالثة أكثر صلابة تجمع بين قوة الحديد وقوة النحاس).

الآية ٩٧، والآية ٩٨: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾: أي فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق السد (لارتفاعه ومَلاسته)، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: يعني وما استطاعوا أن يَخرقوه مِن أسفله لقوَّته.

♦ فلمّا نظر ذو القرنين إلى السد - بعد أن أصبَحَ بناءً شامخًا وحِصنًا حصينًا -: ﴿قَالَ﴾: ﴿هَذَا﴾ السد هو ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ بالناس، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروج يأجوج ومأجوج عند قُرْب الساعة: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: أي جعله اللهُ ترابًا مُساويًا للأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

الآية ٩٩: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: أي تركنا يأجوج ومأجوج – يوم يأتي وَعْدُنا – يَذهبون ويَجيئون في اضطرابٍ كمَوج البحر لِكَثرتهم، (ويُحتمَل أن يكون المقصود بمَن يَموج بعضهم في بعض: الإنس والجن، وذلك يوم القيامة، واللهُ أعلم)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: أي نُفِخَ في "البُوق" نفخة البعث ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾: أي فجمعنا الخلق جميعًا للحساب والجزاء.

الآية ١٠٠، والآية ١٠١: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي عَرْضًا حقيقيًّا يُشاهدونها فيه عن قُرْب، لنُرِيَهم سُوء عاقبتهم، إذ هم ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي كانت أعينهم لا تستطيع أن ترى آياتي الكونية، وكانت بصائر قلوبهم لا تستطيع أن ترى أدلتي القرآنية، ليَستدلوا بها على أنني وحدي المُستحِق للعبادة، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: أي كانوا لا يطيقون سماع حُجَجي المُوَصّلة إلى الإيمان بي وبرسولي، والداعية إلى الهدى والخير.

الآية ١٠٢: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؟! يعني هل ظن الكفار أن يتخذوا مِن مَخلوقاتي آلهةً يَعبدونهم، ليكونوا أولياءَ لهم يُنقذونهم من عذابي؟! (والاستفهام للإنكار والتوبيخ)، يعني: كلا، إنهم سوف يَتبرؤون منهم يوم القيامة، وسوف تُعاقِب المُشرِكين على شِركهم وكُفرهم، فـ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾: أي أعددنا نارَ جهنم للكافرين مَنزلًا، (وفي هذا تهديدٌ ووعيد لكل مَن يتخذ الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء آلهة، يَعبدونهم تحت شعار: التقرب إلى اللهِ تعالى بعبادتهم، وطلب شفاعتهم له عنده، مِن غير أن يكون لهم دليلٌ في ذلك إلا التقليد الأعمى واتِّباع الهوى!!).

من الآية ١٠٣ إلى الآية ١٠٦: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول – مُحَذرًا للناس -: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ يعني هل نُخبركم بأخسر الناس أعمالًا؟ إنهم هُم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي بَطُلَ عملهم وفَسَد، فلم يَنتفعوا به – لأنه لم يكن على هُدىً ولا صواب – فبذلك ضيَّعوه بعد أن تعبوا فيه ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يعني: وهُم يظنون أنهم مُحسنونَ في أعمالهم، (ويَدخل في ذلك: المُراؤونَ بأعمالهم للناس، والعامِلونَ بالبِدَع المُكَفِّرة، والمُشرِكون واليهود والنصارى).

﴿أُولَئِكَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي كفروا بالقرآن وبما فيه من دلائل التوحيد، والأحكام الشرعية التي شَرَعها اللهُ لعباده، وكفروا كذلك بالبعث والجزاء ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي بَطلت أعمالهم بسبب كُفرهم ورِيائهم، وعَمَلهم بغير ما شَرَعَه اللهُ لهم، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، أي لا نجعل لهم قدْرًا ولا قيمة، ولا نُوزِنُ لهم أعمالهم

الباطلة، بل نَحتقرهم ونُذِلّهم)، عِلمًا بأنّ الكفار سيُحاسَبون وإنْ لم تُوزَن أعمالهم، لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، فمُحاسبَتهم لإظهار العدالة الإلهية، لا لأنّ لهم أعمالًا صالحة يُجزَونَ بها).

♦ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح البخاري -: (إنه لَيُؤتَى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يَزن عند اللهِ جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾).

﴿ذَلِكَ﴾ أي أولئك المُحتقَرون الذليلون ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بسبب أنهم كفروا بوحدانية اللهِ تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾، يعني وبسبب أنهم سخروا واستهزؤوا بآيات الله وحُجَجه ورُسُله، فلذلك كان الحُكم عادلًا، والجزاء مُوافِقًا.

♦ ويُلاحَظ أنه تعالى أطلَقَ عليهم لفظ: (ذلك) بدلًا من: (أولئك)، لأنهم بكُفرهم وحبوط أعمالهم أصبحوا لا خيرَ فيهم، ولا وزنَ لهم، فحينئذٍ يُستحسَن أن يُشار إليهم بـــ "ذلك"، (أي ذلك المذكور مِن سَفَلة الخَلق)، واللهُ أعلم.

الآية ١٠٧، والآية ١٠٨: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللهِ ورسوله، وبكل ما أخبر به رسوله من الغيب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على النحو الذي شَرَعَه اللهُ تعالى، فأدَّوا الفرائض والواجبات، وسارَعوا في النوافل والخيرات، أولئك ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ - في عِلم اللهِ وحُكمه -: ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وأفضلها منزلًا (وهي الفردوس الأعلى)، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح البخاري –: (فإذا سألتم اللهَ فسَلُوهُ الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عَرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة).

♦ وحتى نَفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة): فإننا سوف نتخيل أن الجنة عبارة عن صندوق ضخم، فبالتالي تكون الفردوس في منتصف هذا الصندوق ولكنْ في أعلى نقطة فيه، فبذلك تكون أعلى الجنة وأوسط الجنة)، (واعلم أنّ النُزُل هو ما يُعَدّ للضيف مِن إكرامٍ وإنعام).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ - أي في هذه الجنة - ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي لا يريدون تحوُّلًا عنها؛ لأنّ نعيمها لا يُمَلّ منه، وصَفْوها لا يُكَدَّر، وسعادتها لا تنقص ولا تُنَغَّص بموتٍ ولا مرض ولا هَم ولا حزن ولا تعب (جعلنا اللهُ مِن أهلها ومَن قال آمين).

الآية ١٠٩: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول -: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾: يعني لو كان البحر حِبرًا يُكتَب به الكلمات الإلهية التي تحمل العلوم والمعارف: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾: يعني ولو جئنا بِمِثل البحر بحارًا أخرى مَدَدًا له، (وفي الآية إثبات صفة الكلام للهِ تعالى حقيقةً كما يَليق بجلاله وكماله).

♦ وقد تضمنت هذه الآية ردًّا على اليهود الذين قالوا: (أوتينا التوراة، وفيها عِلم كل شيء)، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية ردًّا عليهم وإبطالًا لَمزاعمهم، وأخبَرهم أنّ عِلمه سبحانه لا يَنتهي، وأنهم لم يُعطَوا من العلم إلا قليلًا.

الآية ١١٠: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – لهؤلاء المُشرِكين الذين يَطلبون منك المعجزات بحسب أهوائهم واقتراحاتهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا أقدر على تحقيق مَطالبكم مِن عند نفسي، والفرق بيني وبينكم هو أنني ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ - مِن ربي - ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ﴾، أي مَعبودكم الحق هو ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وهو اللهُ الواحد الأحد، المُستحِق وحده للعبادة.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يعني: فمَن كانَ يرجو ثواب ربه، ويخاف عذابه يوم لقائه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ - وهو كل ما كانَ خالصًا لله تعالى، مُوافِقًا لشَرْعه - ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، فبهذا يكون رجاؤه صادقًا، فإنّ حُسن الظن بدون العمل لا ينفع، وقد ضَرَبَ ابن القيّم رحمه اللهُ مَثَلًا لمن يَزعمونَ أنهم يُحسنون الظن بربهم ولا يَعملون، كمَثَل رجلٍ له أرض زراعية، لا يضع فيها البذور، ولا يَسقيها، ثم يقول: (أنا أُحسِن الظن بها أنها ستُنبت)!

♦ وفي ختام سورة الكهف نُحِبّ أن نَذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح مسلم –: "مَن حَفِظَ عشر آيات من أول سورة الكهف: عُصِمَ من الدَجَّال."

****

المحتويات

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ٢

(تفسير سورة الكهف كاملة) ٣

١. الربع الأول من سورة الكهف ٣

٢. الربع الثاني من سورة الكهف ٩

٣. الربع الثالث من سورة الكهف ١٤

٤. الربع الأخير من سورة الكهف ١٨